العدد الثالث والعشرون
2006

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1374 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2006 مسيحي

د. خليفة محمّد خليفة بدير
كُلِّيَّةُ الدَّعْوَةِ الإِسْلَامِيَّةِ

أ ـ إلحاف:

يجدر بنا قبل أن نجزم بمعناها أن ندرس جذرها الثلاثي وما استعمل من صيغها المزيدة، فالمادة المجردةُ (ح ف ل) مستعملةً في تقاليبها الستة، تدلّ في عمومها على معاني الاجتماع والشمول والتأكيد والملازمة، ولنتناولها مرتبة بحسب أسبقها مدرجاً ـ أسوة بالخليل بن أحمد رحمه الله[1].

أولها: (ح ف ل) والحَفل: الجمع الكثير، ويقال: احتفل القوم احتفالاً، إذا اجتمعوا وحفلتُ اللبنَ في خِلف الناقة أو ضَرع الشّاة، أحفله تحفيلاً، إذا تركتها أيّاماً لا تحلبها.

وهذا أمر لا أَحفِل به ولا أَحفِلُه، أي: لا أباليه، قال لبيد: (من الرمل):

فمتَى أهلكْ فلَا أحفِلُهُ بَجَلِي الآنَ من العيشِ بجلْ

ورجلٌ ذو حَفْلَةٍ، إذا كان مبالِغاً فيما أخَذَ فيه من الأمور، واحتفل لنا فلانٌ، إذا أحسن القيامَ بأمورهم.

---

(1) اعتمدت في هذه الفقرة على معجم العين للخليل، والجمهرة لابن دريد، ولسان العرب بصورة رئيسة، ونظر لكثرة طبعات هذه المعجمات والتصرف فيها تجريا غالباً وإخراجها بعيدة عن الصورة التي أرادها مؤلفوها، ثم تصرفي في مادتها وفقاً لما يقتضيه المقام، فإنني أكتفي بإحالة القارئ الطلعة إلى المادة فقط.

وجاءوا في جمعٍ حفلٍ، أي كثير، والمَحْفَلُ: الجمع من الناس، ويُجْمَعُ محافلَ، وجاء بنو فلانٍ بحفِيلهم، أي: بأجمعهم، ويقال: تعالوا بأجمعِكُمُ الأحفلىٰ، يريد الجماعة، قال الشاعر: (من الرمل).

نحنُ في المَشتاةِ ندعو الأَحْفَلَىٰ لاَ تَرَى الآدبَ فينَا يَنْتَقِرْ[2]

والتحفيلُ: التزيينُ، والتّحفل: التّزيّن، وتحفّلي، أي: تزيّني.

ثانيها: (ح ل ف) الحلف من قولهم: حلفتُ له أحلِفُ حِلْفاً وحَلِفاً، وهو ـ مزيداً بالألف أو بها والتاء ـ حالف وتحالف، يعني أنّ شخصين أو فريقين تقاسما على أن يفي كلّ واحد منهما للآخر؛ فغدا حليفا له، والجمع: حُلَفَاءُ.

ولمَّا التُزِمَ ذلك في الأحلافِ التي كانت تقامُ بين العشائرِ والقبائلِ تُوُسِّعَ في الدلالة فصارَ كلّ شيءٍ لزمَ شيئاً لم يفارقْهُ حليفَهُ، حتّى قيل: فلانٌ حليفُ الجودِ وحليفُ السّهرِ.

قال جرير: (من الطويل)

مُحَالِفُهُمْ جوعٌ قديمٌ وذِلّةٌ وبئسَ الحليفانِ: المذلّةُ والفقرُ

والحليفان: أسد وغطفان اسم لازم لهاتين القبيلتين.

قال زهير: (من الطويل)

إذَا حلّ أحياءُ الحليفينِ حَوْلَهُ بِذِي لَجَبٍ لَجَّاتُهُ وَصَوَاهِلُه

لَجّاتُه: جمع لَجّةٍ وهو اختلاطُ الأصواتِ، وَاللّجَبُ: اختلاطُ الأصواتِ أَيضاً.

ثالثها: (ف ح ل) الفَحْلُ من الإبل وغيره: الذّكرُ المُسْتَفْحَلُ، واستفحلَ الأمرُ: إذا غلُظ، ويقالُ: هو فحلٌ بيّنُ الفِحَالَةِ والفُحُولَة.

والفِحْلَةُ: افتحالُ الإنسانِ فحلاً لدوابّهِ، قال الراجز:

نحنُ افْتَحَلْنَا جُهْدَنَا لم نَأْتَلِهْ

(2) ثمة رواية أكثر شهرة للبيت وقع فيها (ندعو الأجفلى)، بالجيم، والمعنى قريب.

وفحلٌ فحيلٌ: كريمُ المُنْتَجَبِ، وجمعُ فحلٍ: فُحُولٌ وفُحَولَةٌ، وفحولُ الرّجالِ: ذوو النّجدة منهم، قال الشاعر: (من الطويل)

ونحنُ بنُو الشّيخِ الذي سألَ بولُهُ بكلِّ بلادٍ لاَ يَبُولُ بها فَحْلُ

وقيل لجحا: عَلَى مَنْ فِحَالَتُكَ؟ قال: عَلَى أُمِّي وَأُخَيّاتِي!

يضرب في مَنْ قوّتُهُ على الضّعيفِ.

وفي الأثر: تَفَحّلَ لِعُمَرَ رضيَ الله عنه أمراءُ الشامِ؛ تكلّفُوا له الفُحُولَةَ في الملبسِ والمَطْعَمِ فَخَشّنُوهَمَا.

رابعها: (ف ل ح) والفَلَحُ والفلاحُ: البقاءُ، قال الراجز:

لَو كانَ حَيٌّ مُدْرِكَ الفَلاَحِ
أَدْرَكَهُ مُلاَعِبُ الرِّمَاحِ

ويقال: أَفلحَ وأنجحَ، إذا أدرك مطلوبه، ومنه «حي على الفلاح»، أي: هلمّ على بقاءِ الخيرِ، وفي الحديث: «كُلُّ قوم عَلَى زينةٍ من أمرِهِم وَمَفْلَحَةٍ من أَنفُسِهِمْ»، وهو في معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[3].

وأحْسَبُكَ مِن فلاّحةِ اليمنِ، وهمُ الأكرةُ لأنّهم يُفْلِحُونَ الأرضَ، أي: يَشُقُّونَهَا، وفي المثل: «الحديدُ بالحديدِ يُفْلِحُ»، والفَلْحُ: الشّقُّ في الشّفةِ السُّفْلَى، وتقولُ: فلان فلحسٌ يَشَمُّ وَيَلْحَسُ، وهو الكلبُ، ويُوصَفُ به الحريصُ.

خامسها: (ل ح ف) اللّحْفُ: تَغْطِيَتُكَ الشّيءَ باللِّحافِ، تقول: لَحَفْتُ فلاناً لِحَافًا، والتحفتُ بالثّوبِ التحافا، ولَحَفْتُ بهِ غيرِي.

قال طرفة: (من الرّمل)

ثُمَّ رَاحُوا عَبَقُ المِسْكِ بِهِمْ يَلْحِفُونَ الْأَرْضَ هُدَّابَ الأُزُرْ

وكلُّ ثوب التحفتَ به فهو مِلْحَفٌ، وَأَلْحَفَ السائلُ يُلْحِفُ إِلحافاً، إذا ألحَّ

(3) من الآية 53 سورة المؤمنون، ومن الآية 32 سورة الروم.

وَأَبْرَمَ في المسألةِ، والإلحافُ هنا هو بيتُ القصيدِلنا، وسوف يُخَصُّ بمزيدٍ مِنَ الإيضَاحِ فيما بعدُ.

سادسها: (ل ف ح) اللّفْحُ من قولهم: لَفَحَتْهُ النّارُ تَلْفَحُهُ لَفْحاً وَلَفَحاناً، إذا أصابَهُ حرُّهَا، وكذلك كلُّ شيءٍ أصابَكَ حَرُّهُ فَقَدت لَفَحَكَ لَفْحاً وَلَفَحاناً، وَلَفَحْتُ فلاناً بالسّيفِ وَنَفَحْتُهُ بِهِ، إذا ضَرَبْتَهُ بهِ ضربةً خفيفةً، والسَّمُومُ تَلْفَحُ الوجهَ لَفْحاً، إذَا غيّرتْهُ، قال الزّجّاجُ في قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[4]، «يلفَحُ وينفَحُ في معنًى واحدٍ إلّا أنَّ اللّفحَ أعظمُ تأثيراً»[5]. يؤكد هذا المعنى خاتمة الآية: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾[6]، وقد فسّرها بقوله: «والكالِحُ: الذي قد تَشَمَّرتْ شَفَتُهُ عن أسنانه، نحو ما ترى من رؤوسِ الغنم إذا مسّتها النار فبرزتِ الأسنانُ وَتَشَمَّرتِ الشَّفَاهُ»[7].

وقد قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[8].

وفسّر الزّجّاج ذلك بقوله: «أي: إن مسّهم أدنى شيء من العذاب»، وعلّل السمين الحلبيّ مجيئه في تلك الآية بـ «أنّ اللّفحَ أشدُّ من النّفحِ ولذلك أُتِيَ به هُنَا دون النّفِح، لأنّ المقامَ مقامُ تهويلٍ، وأُتِيَ بالنّفحِ هناك ـ يشير إلى آية الأنبياء ـ تنبيهاً على أنّهم إذا أصابَهُمْ أَدْنَى شيءٍ من ذلكَ استغاثُوا وَجَأَرُوا، ومن ثم نكّرت النّفحة للتّقليل»[9].

ب ـ مادّة (ل ح ف) مجرّدة ومزيدة ومعانيها

استقريت من هذه المادّة اثنتي عشرة صيغة وهي كما يلي:

---

(4) سورة المؤمنون، الآية: 104.

(5) معاني القرآن وإعرابه للزجاج، تح: عبد الجليل عبده شلبي، ط1، جـ4، (عالم الكتب 1988م/ 1408هـ)، ص23.

(6) سورة المؤمنون، الآية: 104.

(7) معاني القرآن وإعرابه للزجاج 4: 23.

(8) سورة الأنبياء، الآية: 46.

(9) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، وللسمين الحلبي، تح، عبد السلام الترونجي، ط جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ط1، ج4، (جمادى الآخرة 1424/ 1995) ص2390.

1 ـ فَعْل: لَحْف، اللّحْفُ: تَغْطِيتُك الشيءَ باللّحافِ.

2 ـ فِعْل: لِحْفُ الجبلِ، ما حَزُنَ مِن سُفُوحِهِ.

3 ـ فِعْلَه: لِحْفَة، يُقَال: فُلاَنَةُ حَسَنَةُ اللِّحْفَةِ.

4 ـ فَعَل: لَحَفَ، يُقالُ: لَحَفَهُ لِحافاً: ألبسَهُ إيّاهُ.

5 ـ فِعَال: لِحَاف، اللِّحَافُ والمِلْحَفُ والمِلْحَفَةُ: اللّباسُ الذي فوقَ سائرِ اللباسِ مِن دِثَارِ البردِ ونحوِه.

6 ـ أَفْعَلَ: أَلْحَفَ، أَلْحَفَ فُلاناً: اشترى لَهُ لِحافاً أو أَلْبَسَهُ إيّاهُ، وأَلْحَفَ الرَّجُلُ: إذا جرّ إزَارَهُ عَلَى الأرضِ خُيَلاَءَ وبطراً.

وأَلْحَفَ الرّجلُ ضيفَهُ، إذَا آثَرَهُ بِفِرَاشِهِ ولِحَافِهِ في الحَلِيتِ (الصّقيع).

وَأَلْحَفَ السَّائِلُ: أَلَحّ، والإلحافُ: المصدرُ القياسِيّ للفعلِ «ألحفَ»، والمُلْحِفُ: اسمُ الفاعل منهُ أيضاً، ومنهُ قولُ بشَّارِ بنِ بُرْدٍ: (من الرجز)

الـحُـرُّ يُـلْـحَـي وَالْـعَـصَـا لِـلْـعَـبْـدِ
وَلَـيْـسَ لِـلْـمُـلْـحِـفِ مِـثْـلُ الـرَّدِّ

7 ـ فَعّل: لحّفَ الرّجلُ، مثل أَلْحَفَ، إِذَا جَرّ إِزَارَهُ لِلْخُيَلاءِ والْبَطَرِ.

8 ـ فَاعَلَ: لاحَفَ، لاحَفَهُ مُلاَحَفَةً: كَانَفَهُ وَلاَزَمَهُ، تَقُولُ: فُلاَنٌ يُضَاجِعُ السّيفَ ويُلاَحِفُهُ.

9 ـ فَعِيل: لَحِيف، اللّحيفُ واللِّحافُ: فرسانِ لرَسول الله ﷺ.

10 ـ افْتَعَلَ: التحف به التحافاً: اتّخذه لِحافاً، ومن ذلك الحديث الشريف: «وَهُوَ يُصَلِّي في ثوبٍ مُلْتَحِفاً بِهِ وَرِداؤُهُ مَوْضُوعٌ».

11 ـ تفعّل: تلحّف، مثل التحف.

12 ـ مِفْعَل ومِفْعَلَة: مِلْحَف وَمِلْحَفَة، مَرّ أنّهما مراد فتان لِلِّحَافِ.

ولم ترد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة وقد جاءت بصيغة المصدر في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[10].

(10) سورة البقرة، الآية: 273.

جـ ـ فما اشتقاقها؟

لنعرض قبل الإجابة عن هذا السؤال إلى رأي ثلّة من أشهر العلماء في ذلك.

قال أبو إسحاق إبراهيم بن السّريِّ الزّجاج ت 311هـ في تفسير الآية المذكورة: «ومعنى ألحف، أي: اشتمل بالمسألة وهو مُسْتَغْنٍ عنها، واللِّحَافُ من هذا اشتقاقُه؛ لأنَّهُ يَشْمَلُ الإنسانَ في التّغْطِيَة»[11].

وقال القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطيّة الأندلسي ت 546هـ: «والإلحافُ والإلحاحُ بمعنًى واحد، وقال قوم: هو مأخوذٌ من أَلْحَفَ الشيءَ إذا غَطّاه وَعَمَّهُ بالتّغطيةِ، ومنه اللّحافُ، ومنه قول ابن [أحمر]: (من الوافر)

يَظَلُّ يَحُفُّهُنَّ بِقَفْقَفَيْهِ وَيُلْحِفُهُنَّ هَفْهَافاً ثَخِيناً

يصفُ ذكرَ نَعام يَحْضِنُ بيضاً، فكأنّ هذا السّائلَ المُلِحّ يَعُمّ النّاسَ بِسُؤَالِهِ فَيُلْحِفُهُمْ ذَلِكَ..»[12].

أما القرطبي فيقول: «واشتقاق الإلحافِ من اللِّحافِ؛ لاشتماله على وجوهِ الطّلبِ في المسألةِ كاشتمالِ اللّلحافِ من التّغطيةِ، أي: هذا السائل يَعُمّ الناس بسؤاله فَيُلْحِفُهُمْ ذَلِكَ...»[13]. وذكر بيت ابن أحمر السابق شاهداً على ذلك، مفسّراً إياه بنحو ما ذكر ابن عطية. وسار على المنوال نفسه السّمينُ الحلبي فقال: «واشتقاقُهُ مِنَ اللّحافِ، لأنه ـ أي السائل المُلْحِفُ المُلِحُّ ـ يشتملُ الناسَ بمسألتِهِمْ وَيَعُمُّهُم كما يَشْتَمِلُ اللحافُ مَنْ تَحْتَهُ وَيُغَطِيه..»[14].

---

(11) معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل شلبي ! : 357.

(12) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: المجلس العلمي بفاس، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، ط1، جـ2 (1975م/ 1395هـ)، ص340.

(13) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ت671، ط1، جـ3 (1952م/ 1372هـ)، ص342.

(14) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأبي العباس أحمد بن يوسف بن إبراهيم السمين الحلبي، تح: علي محمد معوض وزملائه، ط1، المجلد الأول (دار الكتب العلمية، =

ثم ذكر بيت ابن أحمر أيضاً مقدّماً له بذكر معناه، وقال: «وقال آخر في المعنى: (من الرمل)

ثُـمَّ رَاحُـوا عَـبَـقُ الـمِـسْـكِ بِـهِـمْ يُـلْـحَـفِـونَ الْأَرْضَ هُـدَّابَ الْأُزُرْ[15]

أي: يُلْبِسُونَهَا الأرضَ كإلباسِ اللحافِ للشيءِ، وقيل: اشتقاقٌ مِنْ لِحْفِ الْجَبَلِ وهو المكانُ الخَشِنُ، ومجازُهُ أنّ السّائِلَ لِكَثْرَةِ سُؤَالِهِ كَأَنَّهُ اسْتَعْمَلَ الخُشُونَةَ في مسألتِهِ، وقيل: بل هيَ مِنْ لَحَفَنِي فلانٌ، أي: أعطانِي فضلَ مَا عِندَهُ، وهو قريبٌ من معنى الأوَّلِ»[16].

وَقَفّىٰ عليهم ابنُ حَجَر العسقلاني ت 852هـ، فقال: «. . . واشتقاقُ أَلْحَفَ من اللِّحَافِ، لأنه يشتملُ عَلى وُجُوهِ الطّلَبِ في المسألةِ كاشْتِمَالِ اللِّحَافِ في التَّغْطِيَةِ»[17].

وَأُرَجّح الرأيَ القائلَ بأنَّ الإلحافَ إنّما هو مُشتَقٌّ مِنَ اللّحاف، على عكسِ رأيِ الزّجّاج أقدِم مَا أُثْبِتَ فِي هذا البحثِ من آراءَ بالخُصُوصِ، ولكنّهُ اشتقاقٌ سَمَاعيٌّ؛ لأنّ القياسيَّ مَا كَانَ من أسماءِ المعانِي (المصادر)، أمَّا أسماءُ الذَّوَاتِ، أي ما هُوَ مُدْرَكٌ بالحواسِّ فلا يُشْتَقُّ منْهَا شيءٌ، بَيْدَ أنّ ما جاءَ من ذلكَ عمّن يُوثَقُ بِهِ منَ العربِ فهو مقبولٌ غيرُ مردودٍ، ولا يُخَطّأُ مُسْتَعْمِلُه، ومعجماتُ اللّغةِ مَظِنّةُ وُجُودِهِ، ويُنَصّ عَلى أنّ بابَهُ السَّمَاعُ فلا يجوزُ القياسُ عليه ولا احتذاؤُهُ[18]، على أنّ رأيَ الزّجّاج هنا يُمْكنُ أن يُلْتَمَسَ لَهُ وجهٌ وهو أنّ أحدَ

= بيروت 1994م/ 1414هـ)، ص657 ـ 659، وانظر أيضاً عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين، تح: عبد السلام التونجي، طبعة جمعية الدعوة الإسلامية، ط1، جـ4 (ديسمبر 1995م/ جمادى الآخرة 1414هـ)، ص2357.

(15) البيت لطرفة بن العبد كما مر في صفحة 3 من هذه الورقة.

(16) المصدر السابق نفسه (الدر المصون. . .).

(17) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، طبعة بيت الأفكار الدولية، جـ1، 65 كتاب التفسير، 2 ـ سورة البقرة، 48 ـ باب «لا يسألون الناس إلحافاً»، ح4539، ص2733.

(18) جاء في باب اللبس في تهذيب الألفاظ لابن السكيت بعناية لويس شيخو (المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1895م)، ص679 ما نصه: «وقال ابن الأنباري: قال أبي: تخفّفت من الخُفِّ، وتنعلتُ: من النّعْلِ، وتوسَّدْتُ الوسادَةَ، وارتفقتُ بالمرفقةِ، والتحفت باللِّحافِ وتلحّفتُ أيضاً.

مَعَاني الاشتقاقِ أنْ يُوجَدَ تشابُهٌ كبيرٌ بينَ لَفْظَيْنِ أو عدّةِ ألفاظٍ دُونما جَزْمٍ بأنَّ بعضَهَا مُسْتَخْرَجٌ مِن بَعْضٍ، مَا لم يكنِ الزّجّاجُ قَدت تبنّىٰ رَأْيَ الكُوفِيّينَ فِي أنّ الفِعْلَ المَاضِيَ هُوَ أصلُ المُشْتَقّاتِ، وهو أَمْرٌ بَعِيدٌ لأَنَّهُ ثَانِي ٱثْنَيْنِ انْتَهَتْ إِلَيْهِمَا الرِّيَاسَةُ فِي النَّحْوِ بَعْدَ المُبَرّد، وَقَد نَعَتَهُ السِّيرَافِيُّ بِأَنّهُ «. . . كَانَ أَشَدَّ لُزُوماً لِمَذْهَبِ البَصْرِيِّينَ. .»[19].

وأقرّر في هذه العُجالة واثقاً أنّ كلمةَ الإلحاف ـ بمعناها الواردِ في الآية الكريمة: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ إنما هي كلمةٌ إسلاميّةٌ خالصَةٌ، لا يَمْلِكُ المُتَأَمِّلُ المُنْصِفُ في الكلامِ السابقِ إلاَّ أن يُسَلِّمَ بذلك، وَيُقَوِيّ هذا الرّأيَ كثرةُ ما وردَ من هذهِ المادَةِ في الحديثِ الشّريفِ، في صيغٍ متعدّدةٍ، من ذلك مثلاً، مَا جاء في باب فضَائل عائشة رضيَ الله عنها من كتاب الجامع الصحيح للإمام البخاري، وفيه قولُه ﷺ لأمِّ سلمةَ رضي الله عنها وقد ناشدته بلسان زوجاتِهِ أن يَأْمُرَ الناسَ بأن يُهْدُواإليه حيثما كان ثلاثَ مرّاتٍ، أَعْرَضَ عنها في اثْنَتَيْنِ منْهَا، وقال لها في الثالثة: «يا أمَّ سَلَمَةَ لاَ تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ: فإنّهُ وَاللهِ مَا أُنْزِلَ عَلَيّ الوَحْيُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرأَةٍ مِنْكُنّ غَيْرِهَا»[20].

وذكر السّرقسطيّ من حديث عائشة رضي الله عنها أنّها قالت: «إنْ كَانَ الوَحْيُ لَيَنْزِلُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَأَنَا وَإِيّاهُ تَحْتَ لِحَافٍ وَاحِدٍ»[21].

وأثبت البخاريّ أيضاً المّادة نفسها في صدر صفحة ترجمة كتابين من صحيحه، نَصُّ أولاهما: «كتابُ الزكاة، بابُ قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ وكم الغنى»[22] وجاء فيه حديث أبي هريرة رضي الله عنه:

---

(19) أخبار النحويين البصريين، لأبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، تح: د. محمد إبراهيم البنا، سلسلة من عيون التراث، رقم 4، (دار الاعتصام، القاهرة 1985م/ 1405هـ)، ص113.

(20) انظر كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ط1، جـ1، (دار الأفكار الدولية 20 ـ 6 ـ 1999م/ 7 من ربيع الأول 1420هـ)، ص1694، 62 ـ كتاب الصحابة، 30 ـ باب فضل عائشة رضي الله عنها، حديث رقم 3775.

(21) كتاب الدلائل في غريب الحديث، لأبي محمد القاسم بن ثابت السرقسطي، تح: محمد بن عبد الله القنّاص، ط1، جـ3 (مكتبة العبيكان بالرياض 2001م/ 1422هـ)، ص1140.

(22) انظر فتح الباري 1: 893.

«لَيْسَ المسكينُ الذِي تَرُدُّهُ الأكلةُ والأكلتانِ ولكنَّ المِسْكِينَ الذِي ليسَ لَهُ غِنًى وَيَسْتَحْيِي، أَوْ لاَ يَسْأَلُ النّاسَ إِلْحافاً[23].

وأثبت ابنُ حجرٍ في شرحه ما رواه النّسائِيُّ من طريقِ عبد الرحمنِ بنِ سعيدٍ الخُدْرِيّ، «. . . سَرّحَتْنِي أُمِّي إِلَى النّبيّ ﷺ ـ يعني لِأَسْأَلَهُ مِن حاجةٍ شديدةٍ ـ فَأَتَيْتُهُ وَقَعَدْتُ، فاسْتَقْبَلَنِي فقال: «مَنِ ٱسْتَغْنَى أَغْنَاهُ الله، الحديثُ»، وزاد فيه: «وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ أُوقِيَّةٌ فَقَدْ أَلْحَفَ»، فَقُلْتُ: نَاقَتِي خَيْرٌ مِنْ أُوقِيّةٍ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَسْأَلْهُ[24].

قال ابنُ حجر: «وَقَدْ أخرجهُ ابنُ حِبّانَ فِي صَحِيحِهِ بلفظٍ «فَهُوَ مُلْحِفٌ» وفي الباب ـ أي باب الزكاة من صحيح البخاري ـ عن عمرو بن شعيب، عن أبيهِ عن جدِّهِ، عن النّسائِيّ بلفظ «فَهُوَ الْمُلْحفُ».

وعن عطاءِ بنِ يسارٍ، عن رجلٍ من بني أسدٍ لهُ صحبةٌ، في أثناءِ حديثٍ مرفوعٍ قال فِيه: «مَنْ سَأَلَ منكُمْ وَلَهُ أُوقِيّةٌ أَوْ عِدْلُهَا فَقَدْ سَأَلَ إِلْحَافاً»[25].

أما الترجمةُ الأخرى التي ضَمّنَهَا الإمامُ البُخَارِيُّ آيَةَ «الإلحاف» فهي في كتاب التفسير، باب «لا يسألون الناس إلحافاً[26]، وعرضَ ابنُ حجر لشرح معناها وتكلّم عن اشتقاقها[27]، وأعربها فقال: «وانتصبَ «إلحافاً» على أَنّهُ مصدرٌ في موضع الحالِ، أي: لا يَسْأَلُونَ في حالِ الإلحافِ، أو معفولٌ لِأَجْلِهِ، أي: لا يَسْأَلُونَ لأجلِ الإلحافِ»[28]،

وتساءل: «وَهَلِ المُرَادُ نفيُ المسألةِ لاَ يَسْأَلُونَ أَصْلاً، أو نفيُ السُّؤَالِ

(23) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

(24) انظر الباري، 24 ـ كتاب الزكاة، 50 ـ باب الاستعفاف عن المسألة، ص891.

(25) انظر الباري، 24 ـ كتاب الزكاة، 53 ـ باب قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾، وكم الغنى، ص893.

(26) فتح الباري، 65 ـ كتاب التفسير، سورة البقرة، 48 ـ باب لا يسألون الناس إلحافاً، ص1952.

(27) انظر إلى ما يتعلق باشتقاقها.

(28) فتح الباري، 65 ـ كتاب التفسير، سورة البقرة، 48 ـ باب لا يسألون الناس إلحافاً، ص1952.

بالإلحافِ خَاصّةً؛ فَلاَ يَنْتَفِي السُّؤَالُ بِغَيْرِ إِلْحَافٍ؟ فِيهِ احتمالٌ، وَيُحْتَمَلُ أن يكونَ المرادُ لَوْ سَأَلُوا لم يَسْأَلُوا إلحَافاً، فَلاَ يَسْتَلْزِمُ الوُقُوعَ»[29].

وَلَعَلَّ فِي إِيرَادِ كُتُبِ اللُّغَةِ بَيْتَي الرَّجْزِ لِبَشّارِ بْنِ بُرْدٍ شاهداً لِصِيغَةِ اسم الفاعِلِ مِنَ الإِلْحَافِ دَلِيلاً عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُتَوَسّعْ فِي اسْتِخْدَامِ هذِه المّادةِ إلاّ بَعْدَ الإِسْلاَمِ وَإِلاّ لَو وَجَدُوا فِي الشِّعْرِ الْجَاهِلِيّ أَوِ الْإِسْلاَمِيِّ فِي فَتْرَةِ الاسْتِشْهَادِ لَذَكَرُوهُ.

وقد عثرتُ مصادفةً في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني على ما يفيد تَدَاوُلَ هذه المادّةِ بين الأدباء.

فقد جاء في أخبار أبي نواس وجنان ما نصه: «عن عون بن محمد قال: حدثني الجماز، قال: كنتُ عندَ أَبِي نُوَاسٍ جالساً إِذْ مَرّت بِنَا امْرَأَةٌ مِمّن يُدَاخِلُ الثَّقَفِيِّينَ، فَسَأَلَهَا عَن جِنَانٍ وَأَلْحَفَ فِي الْمَسْأَلَةِ واسْتَقْصَى، فَأَخْبَرَتْهُ خَبَرَهَا..»[30].

وفي أخبار يونسَ بنِ الخيّاط[31]: «كان يونس بن الخيّاط عاقاً لأبيه، فقال أبوه فيه: (من المنسرح)

يُونُسُ قَلْبِي عَلَيْكَ يَلْتَهِفُ ... وَالْعَيْنُ عَبْرَىٰ عُيُونُهَا تَكِفُ
تُلْحِفُنِي كُسْوَةَ الْعُقُوقِ فَلاَ ... بَرِحْتَ مِنْهَا مَا عِشْتَ تَلْتَحِفُ
أُمِرْتَ بِالْخَفْضِ لِلْجَنَاحِ وَبِالرِّ(م)ْ ... فْقِ فَأَمْسَى يَعُوقُكَ الْأَنَفُ
وَتِلْكَ وَاللَّهِ مِنْ زَبَانِيَةٍ ... إِنْ سُلِّطوا فِي عَذَابِهِمْ عَنُفُوا

فأجابه ابنُه يُونُسُ فقال:

أَصْبَحَ شَيْخِي يُزْرِي بِهِ الْخَرَفُ ... مَا إِنْ لَهُ حُرْمَةٌ وَلاَ نَصَفُ

(29) فتح الباري، 65 ـ كتاب التفسر، سورة البقرة، 48 ـ باب لا يسألون الناس إلحافاً، ص1952.

(30) انظر كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني تح: علي النجدي ناصف، ط1، (دار الكتب المصرية 1972م/ 1392هـ)، ص64.

(31) كان يونس بن الخياط شاعراً ماجناً، خليعاً هجاء، خبيثاً، من مخضرمي شعراء الدولة الأموية والعباسية، كان منقطعاً إلى آل الزبير مدّاحاً لهم. انظر المصدر السابق، ص2.

صِـفَـاتُـنَـا فِـي الْـعُـقُـوقِ وَاحِـدَةٌ مَـا خِـلْـتُـنَـا فِـي الْـعُـقُـوقِ نَـخْـتَـلِـفُ
لَـحَـفْـتَـهُ سَـالِـفـاً أَبَـاكَ فَـقَـدْ أَصْـبَـحْـتَ مِـنِّـي كَـذَاكَ تَـلْـتَـحِـفُ»

وَأَسْتَظْهِرُ هنا بقول ابن فارس في كتابه فقه اللغة: «كانتِ العربُ في جاهليّتِهَا على إرثٍ من إرثِ آبائِهِم في لُغَاتِهِم وآدابِهِم ونَسَائِكِهِمْ وقرابِينِهِمْ، فلّما جاء الله تعالى بالإسلام حَالت أحوالٌ ونُسِخَتْ دِيَانَاتٌ وَأُبْطِلَتْ أُمُورٌ وَنُقِلَتْ مِنَ اللُّغَةِ ألفاظٌ من مواضعَ إلى مواضعَ أُخَرَ بزياداتٍ زِيدَتْ... فَعَفّىٰ الآخِرُ الأوَّلَ، فكانَ مِمّا جاءَ في الإسلامِ ذكرُ المؤمنِ والمُسْلِم والكافِرِ والمُنَافِقِ، وإنّ العربَ إنّمَا عَرَفَتِ المُؤْمِنَ مِنَ الأَمَانِ وَالإِيمَانِ وَهْوَ التَّصْدِيقُ، ثُمَّ زَادَتِ الشَّرِيعَةُ شرائطَ وأوصافاً بهَا سُمِّيَ المُؤْمِنُ بالإِطْلَاقِ مُؤْمِناً.

وَمِمّا جاءَ في الشّرعِ الصَّلاةُ وأصلُهُ في لُغَتِهِمُ الدعاءُ، وقد كانوا يَعْرِفُونَ الرُّكُوعَ والسُّجُودَ وَإِنِ لم يَكُنْ عَلَى هَذهِ الهيئةِ، قال أبو عمرو: أَسْجَدَ الرَّجُلُ: طَأْطَأَ رَأْسَهُ، وَأَنْشَدَ: (من الطويل)

فَقُلْنَ لَهُ: أَسْجِدْ لِلَيْلَىٰ. فَأَسْجَدَا

يَعْنِي البعيرَ إِذا طَأْطَأَ رأسَهُ لِتَرْكَبَهُ... وعلى هذا سائرُ أبوابِ الفِقْهِ فالوجُه فِي هذا إذا سُئِل إنسانٌ عنه أن يقول: منه اسمانِ لغويٌّ وشرعيٌّ وَيَذْكُرَ مَا كانتِ العربُ تَعْرِفُهُ ثم جَاءَ الإسلام بِهِ، وكذلكَ سائرُ العُلُومِ كالنّحوِ والعروضِ والشِّعرِ، كلُّ ذَلِكَ له اسمان لُغَوِيٌّ وَصِنَاعِيٌّ»[32].

والحديثُ عن هذه الشّذرة من الآية بله الآية كلّها ذُو شُجُونٍ يَضِيقُ عنه المُقَامُ عسى أَن أوفقَ في تِبْيَان شَيْءٍ قَلِيلٍ مِن تَجَلِّيَاتِهَا مُسْتَقْبَلاً، وَقَلِيلُ ذلكَ جِدُّ كَثِيرٍ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[33].

(32) نقلاً عن كتاب المزهر للسيوطي، تح: محمد أحمد جاد المولى وزميله، جـ1، ص295.
(33) سورة آل عمران، الآية: 8.